مقتطفات من كتاب عشرة أيام فى حياة الرسول

ها هو ذا يعيش ويعيشون معه على التمر والماء.. بينما ريح الشواء تفوح من أكثر البيوت.

ها هو ذا ينام على حصير يترك آثاره الضاغطة على جسده الكريم، حتى إن عمر بن الخطاب.. ليبكى حين يراه، ويسأله أن يتخذ له فراشًا لينًا، فيكون جوابه عليه السلام:

"يا عمر"

"إنها نبوةً، لا ملك"!!

هل ثابر وصابر واحتمل من أجل مجد شخصى.؟ من أجل الاستمتاع الفاغر بالحياة..؟

فأين هو المجد الشخصى الذى تلفّع به وقد صار سيّد الجزيرة.؟

لقد ظلّ واحدًا من الناس.. يرفض أى تمايز، ويرفض أن يقوموا له إذا قدم عليهم، ويأخذ بجماع ثوبه واحد من صعاليك الأعراب قائلاً:

[أعطنى، فليس المال مالك ولا مال أبيك]..!!

ليس ذلك فحسب.. بل امتدَّ الشَّظف إلى بيت بنت الرسول (فاطمة الزهراء) التى تعيش بعيداً مع زوجها الإمام على.. فكانت كلما ذهبت إلى أبيها الرسول تسأله من العطاء الذى يعطى منه الناس جميعًا، تسمع منه هذا الجواب:

[.. لا أُعطيك ، وأدعُ فقراء المسلمين] !!

ثم يضمُّها إلى صدره حين يرى الدمع يترقرق فى مآقيها، ويقول لها: ـ ألا أدلك على خير من ذلك..

[سَبِّحى الله ثلاثًا وثلاثين

واحمدى الله ثلاثًا وثلاثين

وكبّرى الله أربعًا وثلاثين]..!!!

تعدد زوجات الرسول

لقد بُعث الرسول ـ عليه السلام ـ فى سن الأربعين، وهاجر إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عامًا من بعثته ـ أى وهو فى الثالثة والخمسين.. وطوال هذه المدة المباركة من عمره، لم تكن له سوى زوجة واحدة ـ هى السيدة خديجة.. رضى الله عنها.. وبعد موتها، لم يتخذ لنفسه سوى زوجة واحدة، هى "سودة بنت زمعة" ولبث على ذلك حتى هاجر إلى المدينة، وهناك أعرس بعائشة بنت الصديق.

إن هذه الحقيقة وحدها تدحض كل تساؤل، وتُظهر فى وضوح كامل أن تعدد الزوجات فى حياة الرسول، كان وليد أغراض أخرى أبعد ما تكون عن الرغبة فى إشباع جنسى.

وتأتى الحقيقة الثانية، لتؤكد الأمر، تلك هى أن جميع زوجاته عدا عائشة ـ كنّ ثيبات ـ ونصفهن عجائز..

وتأتى حقيقة ثالثة، هى أن كل نسائه ـ بعد خديجة ـ تزوج بهن ـ عدا سَودة ـ فى المدينة بعد الهجرة، أى فى السنوات التى قضى ليلها ونهارها فى صراع مستمر لا يهدأ مع المنافقين فى المدينة، والمشركين فى قريش.. وهوازن وثقيف بعد فتح مكة.. ثم مؤامرات الروم بعد أن دانت الجزيرة كلها للإسلام.

إذن، فماذا كان سرّ هذ التعدد..؟؟

لقد كان النبل، والأبوة، والإحساس العميق بالمسئولية وراء تعدد الزوجات فى حياة الرسول.

ويمكن القول: أن الزواج الذى وقع فى حياة الرسول بقصد الزواج ذاته، إنما حدث مرتين:

أولاهما ـ زواجه بخديجة.

ثانيهما ـ زواجه بعائشة، بعد موت خديجة.

أما بقية الزوجات، فقد كان وراء الزواج بكل منهن، سبب غير قصد الزواج.

والحق أن كل هذه الزيجات كانت "إيواءً ورعاية" أكثر منها زواجًا.

ولعل الآية الكريمة توضح هذا المعنى حين تقول للنبى:

﴿تُرْجى من تشاء منهن﴾

﴿وتُؤوى إليك من تشاء﴾

كان إيواءً ورعاية لسيدات كريمات، أصابهن من الظروف ما يدعو لإيوائهن ورعايتهن فى أرفع مستويات الإيواء والرعاية.

فـ "حفصة" مثلاً.. استشهد زوجها فى غزوة بدر، وبقيت مترملة زمنًا ليس بالقصير، وكان النبى يرى فى ترملها مشكلة ترهق مشاعر أبيها ـ عمر بن الخطاب ـ الذى عرضها على (أبى بكر) ليتزوجها فاعتذر.. ثم على (عثمان) فاعتذر أيضًا.. هنالك آواها الرسول إلى عصمته.

و (سودة).. أسلمت هى وزوجها (السكران بن عمرو) وهاجرا إلى الحبشة.. وفى طريق عودتهما منها، توفى زوجها وتمنت أن تقضى حياتها فى بيت رسول الله، فتزوجها.

و (أم حبيبة) بنت أبى سفيان.. أسلمت وزوجها عبيد الله بن جحش، وهاجرا إلى الحبشة.. وفى الحبشة غيَّر زوجها دينه واعتنق النصرانية.. وبلغ أمرُه رسول الله. فشغلته مأساة الزوجة الوحيدة فى بلاد الغربة والهجرة..

هذه التى أسلمت مبكرة فى الوقت الذى كان أبوها وأسرتها يتزعمون اضطهاد المسلمين.

أهناك عزاء وتكريم يقدمان لها فى هذه المناسبة خير من أن يضمها الرسول إليه..؟

ولقد فعل، فأرسل إلى نجاشى الحبشة يطلب إليه أن ينشئ عقد زواج له بأم حبيبة.. وقام النجاشى بدعوة بعض المسلمين المهاجرين وأشهدهم على عقد الزواج، ودفع هو مهر العروس من ماله نيابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام..!!

إن هذه الواقعة ترينا، كيف كان زواج أولئك الزوجات إيواءً لهن ورحمة بهن..

فالرسول بزواجه من أم حبيبة على البُعد، لم يكن يقصد الجنس فى الزواج.. فهو فى بلاد.. وهى فى بلاد.. ولقد ظلّت بعيدة عنه بعد عقد الزواج سنين.. إنما أراد بعد أن فعل زوجها ما فعل ألا يدعها فريسة الظروف الصعبة التى حاقت بها فى بلاد الغربة.. وأراد أن يكافئ بما يستطيع، هذه السيدة العظيمة التى هاجرت إلى الله ورسوله، تاركة وراءها فى بيت أبيها وأهلها.. النعمة والرغد والرفاهية.. فلم يجد لتكريمها أفضل من أن يجعلها إحدى زوجاته المباركات.

(زينب) بنت عمة الرسول، ذات الحسب والجمال، خطبها الرسول لزيد بن حارثة الذى كان عبدًا وأعتقه الرسول، ثم تبناه.

لكن "زينب" لم تظهر ارتياحها لهذا الزواج، وكذلك كان موقف أخيها، بيد أنهما أمام رغبة الرسول وافقا، وزفت "زينب" إلى "زيد".. لكن حياتهما الزوجية اتسمت بفقدان التفاهم والانسجام، وكان لابد

من الطلاق .

وبعد الطلاق، رغبت زينب أن تكون زوجة للرسول، ورأى الرسول نفسه مسؤولاً عن الزج بها فى زواج لم تكن تريده، فلم يكن هناك تعويض لها أقل من تحقيق رغبتها.. وهكذا ضُمَّت إلى أمهات المؤمنين .

و "صفية" بنت حُيىّ بن أخطب زعيم اليهود فى بنى النُضير وفى معركة "خيبر" التى دارت بين المسلمين واليهود، فقدت أباها، وزوجها، وأخاها، ووقعت هى فى أيدى المسلمين بين السبى والأسرى.

ونقل بعض أصحاب الرسول إليه، نبأها، والرسول عليه السلام كان وافر الأسى والرحمة لكل عزيز قوم يَذِلّ، ولقد دعا "صفية" وخيَّرها بين أمرين:

- أن يعتقها، ويردها إلى من بقى من أهلها.
- أو تسلم، وتكون له زوجةً وأمًا للمؤمنين.

وصاحت "صفية" مغتبطة وشاكرة:

[اخترت الله، ورسوله]

وتزوجها الرسول .

***

على هذا النمط، كان تعدد الزوجات فى حياة الرسول.. كان الزواج فى معظمه نوعًا من الإيواء والكفالة والعزاء والتكريم .

يومُ حمزة

وهكذا رآه الرسول حين رآه..

مَزَّقوا جسده.. بَقَروا بطنه.. انتزعت هند زوجة أبى سفيان كبده وراحت تلوكها فى شماتة.. وانتزعت أمعاءه وجعلت من بعضها قلادة طوقت به عنقها.. وجَدَعَتْ أنفه وأذنيه..!!

وقال الرسول ـ وعيناه تلفّان جسد عمه بأساهما العميق، والكلمات تخرج من تحت أضراسه مغيظة مُنذرة:

"لولا أن تحزن صفية ـ أخت حمزة وعمة الرسول ـ ولولا أن يكون سُنة من بعدى، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير..!!"

أجل.. فما فى الأرض مكان يتسع لوقدة الثأر الذى يهتف به الجسد الممزق المفدوح.

أما بطون السباع، فلعلها المكان المناسب لرفات الأسد..

ثم تابع الرسول قوله فقال:

"ولئن أظهرنى الله على قريش، فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم".

فصاح أصحابه:

"والله، لئن أظفرنا الله بهم من الدهر، لنُمثّلن بهم مُثلةً لم يمثلها أحد من العرب".

وهنا يستكمل "يوم حمزة" جمالة وجلاله، وتتبدّى حكمة الله فى

كل ما حدث خلال اليوم للرسول وأصحابه..!!

فلا يكاد الرسول والمسلمون يفرغون من إلقاء وعيدهم هذا، حتى تنزل الوحى من فوره:

﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن.. إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

﴿وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به.. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين.

﴿واصبرْ، وما صَبرُك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تُك فى ضيق مما يمكرون.

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون..﴾

تالله، ما أروع الدرس وأبهاه..

فحتى فى مواطن القتال والحرب، يستهل الله كلامه إلى رسوله بقوله سبحانه:

﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾.

وفى موطن القتال والحرب، لا يقول الله لرسوله ﴿وقاتلهم بالتى هى أحسن﴾.

بل يقول سبحانه:

﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾.

مؤكدًا بهذا طبيعة دوره وجوهر رسالته.. إنها النبوة تنقل إلى الناس هُدى الله بالكلمة الطيبة المقنعة.. وليست الحرب تفرض نفسها بالسيف والرمح.

وإذا كان الرسول قد اضطر للحرب، فلأن أعداءه وأعداء دينه صنعوا الظروف التى جعلت الحرب ضرورة.

وبانتهاء الضرورة واختفاء ظروفها يعود النبى لجوهر دَوْره ووظيفته ورسالته [1]